قصّة قصيرة

عشتار

باسل الخطيب

انتزعه الاحتقان من حلمه الرهيب ودفعه عارياً إلى الحمّام المجاور لغرفة النوم. وهناك وقف مستنداً بيده إلى الحائط الأملس وأخذ يراقب بعينين مطفأتين انحسار ينبوعه المتقطّع، وينكمش إثر الحرقة الثاقبة، عندما انقضّت عليه فجأة دون توقّع الفكرة المعذّبة عينُها. لقد أدرك أنّه لم يكن يعرف حتّى الآن ما الذي يريده في هذه الحياة. شعر بالانقباض وغادر الحمّام متعثّراً يشعر بالدوار، فالحقيقة التي حاول تجنّبها طوال حياته فاجأته في أشدّ اللحظات عزلة.

اجتاز الممرّ على عجل عائداً إلى غرفة النوم، وقبل أن يلج إليها توقّف لبرهةٍ عند عتبة الباب فتدفّق عليه من الأعلى غبار ضياء أخضر خافت. لم يستطع أن يخلّص نفسه من إجهاد القنوط الذي ظلّ يلاحقه، فتأمّل السرير الحديديّ الواسع والأطراف المرثيّة من جسد زوجته النائمة، وأراد أن يقنع نفسه بأنّ النوم أكبر خدعة عرفها الإنسان في تاريخه. وربّما أوجد هكذا تبريراً للحقيقة التي فاجأته في حلمه وعاودته منذ لحظات، فالظروف الخارجيّة وحدها هي سبب كلّ الإحباطات. وأمّا زوجته التي كانت ماتزال معلّقة بين الحلم واليقظة فقد أخبرته في وقتٍ متأخّرٍ من الصباح بأنّها أحسّت به يتقلّب الليل كلّه في السرير، ثمّ يغادره إلى الحمّام، ورأته يقف عارياً عند باب الغرفة يضيئه مصباح الممرّ، لكنّها لم تخبره بأنّه كان يبدو آنذاك، كما خُيّل لها، طفلاً تائهاً يبكي عند مدخل مغارةٍ خرافيّة.

«حروبنا كلّها وهميّة...». قال لنفسه هامساً وهو يرتشف قهوة الصباح ويغوص بخدرٍ في كومة الأعشاب الخضراء المجهولة التي كانت تنمو بين شقوق حائط الغرفة الحجريّ.

«افترسني صمتي طوال النهار، ورافقه إحساسٌ مريعٌ بالعقم والعزلة. لم أكتب كلمةً واحدة. بقيت جالساً وراء المكتب لساعات أعبث بحاجبي الأيسر إلى أن تنبّهت بأنّني نتفته كاملاً، وتناثرت شعيراته الباهتة على الورقة البيضاء التي كانت تزهو أمامي منذ أيّام بانتظار أن أعترف لها بحبّي. لكنّه يُخيّل إليّ أنّني لم أعد قادراً على أن أحبّ. كأنّما فقدتُ الإلهام لذلك، وها أنا أترقّب عودته إليّ، ربّما من خلال حلم ما...».

كان يعرف أنّ العلاقة بين أحلام اللّيل وأحداث النهار علاقة تأثير متبادل إلى أقصى الحدود. فإذا كان يتراءى له في الحلم كلّ ما بدا خاصّاً ومميّزاً أثناء النهار، فإنّ أحلامه اللّيليّة كانت تترك آثارها على سلوكه لليوم التالي، وأحياناً لفترةٍ طويلةٍ أخرى... ذات ليلة رأى نفسه عارياً يمضي في مقبرة تغطّيها الثلوج، ويضعُ باقة زهورٍ على قبر إنسانٍ عزيزٍ على قلبه دون أن يعرف من هو هذا الإنسان. بعد ذلك رأى نفسه يعدو في سرداب مبلّل يطارد الجرذان، ثمّ تحوّلت الجرذان إلى بشر، ولاحقوه حتّى خرج إلى معبدٍ قديمٍ واغتصب على مذبحه بوحشيّةٍ فظيعةٍ فتاة سمراء صغيرة وسط هتافات المصلّين وتصفيقهم، ثمّ ساد السكون، فأمسك حجراً وألقاه على أحد الجدران فتقوّضت أعمدة المعبد وهوى. وجد نفسه في المقبرة ثانيةً بجانب القبر نفسه، مدّ يده المدمّاة وأزاح الثلج عن الشاهد الرخاميّ وقرأ اسمه منحوتاً عليه.

وعندما استيقظ كان مغسولاً بالعرق يرتعش بشدّة، والعبارة الوحيدة التي قالها لزوجته في ذلك النهار: «لن أستطيع أن أحبّ بعد الآن...».

أمضى ساعة ما قبل الغداء يتنقّل بين غرف الشقّة الواسعة. تصفّح بعضاً من كتبه، وانتابته الدهشة إذ كيف كان قادراً على كتابة مثل هذه الترهات، بل ونشرها من أجل أن يقرأها عشرات الآلاف من الناس. تأمّل صوراً قديمةً لرحلاته وحفلاته، وحاول أن يجد فيها عزاءً لعزلته وعجزه. وما لبث أن سمع صوت زوجته تدخل الشقّة وتدعوه إلى الطعام.

لم تصدّق زوجته أنّه لم يقدر على كتابة حرفٍ واحدٍ بسبب حلمٍ رهيبٍ تراءى له اللّيلة الماضية. لكنّه كان يعتبر الأمر طبيعيّاً، وكان يقول: «كيف لا؟ وأنا أمضي نصف حياتي نائماً وعندما أستيقظ في النصف الآخر أنحشر وراء ذلك المكتب اللعين وأكتب قصصاً...».

والبارحة حلم بأنّه يخوض حرباً. وكان كلّ شيء يبدو حقيقيّاً حتّى في اللحظات التي كان يعرف فيها أنّ الأمر كلّه مجرّد حلم. ساحة المعركة كانت حقيقيّةً، والبنادق والرصاص والدخان وجثث القتلى، وحتّى الدّم الذي سال منه كان حقيقيّاً، وكان ثمّة إحساس بأنّه يحارب عدوّاً لعيناً وقاسياً، إلى أن اتّضح فجأة من خلال سكونٍ مرعبٍ أطبق على المكان، ورافقه ظهور باعة متجوّلين ومجموعات

من السيَّاح الغرباء، أنَّه كان مجرّد طُعمٍ صغير في مشروعٍ جهنّميّ، وأنَّ الحرب كانت غير حقيقيّة.. كانت وهميّة. لقد تعذّب وسال دمه في سبيل حرب اتّضح أنَّها وهميّة وامتدَّت في حلم بدا بلا نهاية. وفي الصباح التالي همس لنفسه بهذه الحقيقة، وشعر بأنَّه من العبث أن يكتب الإنسان أيّة كلمة عن أيّ شيء.

«... إنَّني أتخبَّط في أزمةٍ عميقة. لقد أدركت الحقيقة كاملة إثر حلم ليلة عابرة. هذا لا يحدث غالباً لكنَّه حدث معي. نحن نكاد نعرف كلّ شيء إلاَّ الحياة نفسها. وبعبارة أخرى نحن نعرف كلّ شيء ما عدا ذلك الذي نريده حقّاً في هذه الحياة. وكلّ من يقول بأنَّه يعرف تماماً ماذا يريد فهو كاذب، لأنَّه من المستحيل بالنسبة لأيّ إنسانٍ أن يعرف هذا، بل كيف له أن يعرف إذا كان لا يعرف على الأقلّ كيف ستنقضي حياته غداً، أو حتّى بعد ساعات أو دقائق؟

إنَّ الحلم الذي تراءى لي اللَّيلة يؤكّد كلّ هواجسي. إنَّنا جميعاً نخوض حرباً وهميّةً مسبقة الصنع. حروبنا كلّها وهميّة لأنَّها لم تبدأ من لحظة النصر الذي كان يجب أن نحقّقه. الحرب الحقيقيّة لم تبدأ بعد، وهي الحرب التي يجب أن نشنَّها على أنفسنا. فالصراع الحقيقيّ يدور هنا، في أعماقنا، وضدّ الشرور الكامنة في أرواحنا وهي أكثر ما تتمثَّل بجبننا، وخوفنا، وتقاعسنا عن أداء واجباتنا تجاه أنفسنا وأرضنا والنَّاس الذين نحبّهم.

التشويش يطحن رأسي. أفتقر إلى الوضوح، وأشعر أحياناً أنَّ تلقّي مئات الطعنات في صدري أهون عليَّ من كتابة كلمةٍ واحدة. لكنَّني لم أزل بعيداً عن المرحلة التي سأدرك فيها أنَّني عاجزٌ عن الكتابة، لأنَّه لم يعد لديَّ ما أكتب عنه. أعترف أنَّ لديَّ فكرةً أُماطل منذ زمن بالشروع في كتابتها. إنَّها تشغلني على الدوام، وتستحوذ عليّ كلّ مشاعري حتّى عندما أكون منهمكاً بكتابة أيّ عمل آخر. ومع ذلك أخاف أن أبدأ بكتابتها، لأنَّني إذا ما بدأت فسوف أستمرّ حتّى أنتهي، وإذا انتهيت فسأموت رعباً من الفراغ الذي يخيَّل إليَّ أنَّني سأهوي فيه عندئذ. هناك رواية يجب ألاَّ يشرع الكاتب في كتابتها تماماً مثل القصيدة التي يجب ألاَّ ينظمها الشاعر أبداً رغم أنَّها تعيش معه منذ ولادته.. يجب أن تبقى هذه القصيدة لحناً غير منتهٍ في أعماقه، لحناً يصدح مادام هو على قيد الحياة، لأنَّ اللّحن إذا ما تمَّ فسوف يهوي الشاعر في الجرف الذي كان يخشاه، ويبتعد عنه طوال حياته: الفراغ.

من يعرف عنَّا أكثر ممَّا نعرفه عن أنفسنا؟ إنَّها رغم البريق والتوهّج واجهات زجاجيَّة آيلة للسقوط والتهشّم، سيخترقها الزمن يوماً ما.

لن أعود إلى عقلانيّتي المقيتة وسأبقى أسترشد بنبض قلبي لأنَّه وحده بوصلتي التي لن تخدعني أبداً رغم كلّ الحقائق التي ستفاجئني وتعذّبني. إنَّ الحقيقة والتوازن موجودان وقائمان في كلّ مكانٍ حولنا ويجب أن نبحث عنهما ونحقّقهما في أنفسنا، وإلاَّ فسوف نبقى أناساً وهميّين يخوضون حروباً وهميَّة، ويعيشون حياةً وهميَّة، وعندئذٍ سينقلب كلّ شيء إلى وهمٍ كبير.

في هذه اللحظات يُخيَّل إليَّ أنَّني أتحوَّل إلى طفل. ورغم أنَّني لست راغباً في أن أعود طفلاً من جديد، إلاَّ أنَّ الإحساس بالطفولة يريحني ويلهمني إلى حدٍّ لا يُصدّق. إنَّه يريحني لسببٍ واحدٍ فقط، لأنَّني مادمت طفلاً فإنَّ الأحلام سوف تبقى هاجسي الأساسي وسيغمرني عندئذ ذلك اليقين الطفوليّ النادر بأنَّ المستقبل الرحب آتٍ دون شكّ، وأنَّني لم أفقد شيئاً بعد، وأنَّ بوسعي أن أفعل كلّ ما أريد...».

استلقى إلى جانب زوجته، وفكّر للحظة بأنَّ السرير ربّما كان من أغرب الأمكنة في العالم، لأنَّ الإنسان عندما ينام عليه فإنَّه يموت، وعندما يموت تتراءى له الأحلام، وعندما تتراءى له الأحلام يشتاق إلى الحياة أكثر. وتذكّر حادثة قرأها في إحدى الروايات بأنَّ نجّاراً يصنع التوابيت أراد أن يهدي زوجته بمناسبة عيد زواجهما الرابع سريراً جديداً من صنع يديه، ولم تكن زوجته قد أنجبت له بعد. أمضى أيّاماً وليالي يعمل في منجرته إلى أن انتهى من إعداده، وعندما نقله إلى غرفة النوم صعقت زوجته لأنّ السرير كان يشبه التوابيت تماماً بقوائمه المائلة إلى الداخل وطلائه الجنائزيّ الأسود اللامع ومقابضه الحديديَّة المزخرفة المثبَّتة عند أطرافه الأربعة. والأفظع من ذلك أنَّ الزوجة بدأت منذ ذلك الحين تشمّ رائحة الموت في الدار كلّها، ورفضت أن تنام عليه في بادئ الأمر إلى أن باغتها زوجها في المطبخ يوماً، وأضرم فيها جذوة الحبّ فلم تستفق إلاَّ وهي عارية تذوب معه في رحابة السرير، فاعتادت عليه، بل وأخبرت زوجها فيما بعد أنَّها استمتعت بممارسة الحبّ أكثر من أيّ وقت مضى، وقد حبلت منه في ذلك النهار بالذات. إنَّ أشدّ الأمور تناقضاً في الحياة لا تكون إلاَّ في تماسٍ فريدٍ بعضها مع بعض بحيث لا يفصل بينها سوى خيط أسود لامرئي، غالباً ما نتعثَّر به.

دعته زوجته إليها بهمساتٍ محترقة، فأحبَّها، ثمَّ غفا على صدرها. وفي بداية اللّيل حلم بأنَّه يقف أمام ممرٍّ مألوف له دون أن يتذكَّر أين رآه من قبل. وبقيت صورة الممرّ مثبَّتة في رأسه إلى أن انتزعها منه شعور الاحتقان الليليّ المعهود، فاعتدل وجلس على حافَّة السرير وتنهَّد بعمق.

«إنّه الاحتقان ثانية أليس كذلك؟»... أتاه سؤال زوجته متقطّعاً وواهناً، فهزّ رأسه بالإيجاب. تابعه صوت زوجته في الظلام: «يجب أن ترى أخصّائياً. من غير المعقول أن تبقى على هذه الحال».

ساد الصمت للحظات، ثمّ ضحك فجأةً وهو ينهض ويغادر الغرفة: «الاحتقان ليس هنا»، وأشار إلى مجاريه البوليّة. «بل هنا...» ورفع يديه وضغط بهما بقوّة على صدغيه.

ما لبث أن تنفّس الصعداء وهو يتبوّل في الحمّام المعتم وشعر بالفرح عندما أغمض عينيه لبرهة، واستعاد صورة الممرّ الذي تراءى له، وخيّل إليه أنّ هذا الممرّ ليس سوى الطريق الذي كان يبحث عنه طوال حياته، وأنّ شيئاً قد فقده سوف يستردّه قريباً. وعندما استدار وأراد أن يغادر الحمّام تجمّد في مكانه، وأحسّ بقلبه يهوي، ووجد نفسه يتعثّر في خيطٍ لامرئيّ. كان الممرُّ المؤدّي أمامه إلى غرفة النوم، نفس الممرّ الذي رآه في الحلم منذ قليل، لكنّه كان مضاءً بمصباحٍ أخضر خافت، وبدا أكثر طولاً وامتداداً في العمق. بدأ يجتاز الممرّ، وكان كلّما سار خطوةً إلى الأمام شعر أنّ الطريق يزداد طولاً، والجدران تعلو أكثر فأكثر، ثمّ انتبه إلى أنّ أبعاد المكان لاتزال على حالها، وأنّ جسده هو الذي كان يتقلّص تدريجيّاً إلى أن أصبح طفلاً.

تابع سيره في الممرّ، ثمّ التفت جانباً فرأى طفلةً سمراء صغيرة تسير بقربه، وتمسك يده بقوّة وتبتسم.

«أنا اسمي عشتار...». همست له بخجل.

أمضيا اللّيل يجتازان الممرّ الأخضر الذي بدا بلا نهاية، وكان الفجر ذهبيّاً عندما وصلا إلى غرفة النوم.

لكن غرفة النوم لم تكن موجودة في مكانها، ووجدا نفسيهما على مشارف قريةٍ بيضاء صغيرة تحيط بها المروج والروابي الخضراء. وكانت رائحة النعناع تطفو بسحرية في الفضاء، وكان الرذاذ يتساقط..